چين اير لشارلوت برونتى

بقلم
السيدة صوفى عبد الله

١ — المؤلفة

ولدت شارلوت برونتى بمقاطعة يورك شاير فى سنة ١٨١٦ وماتت متأثرة بحملها فى سنة ١٨٥٥ عن قصائد من الشعر العاطفى وأربع روايات هى « چين إير » و« شيرلى » و « ڤيليت » و « الاستاذ » ورواية خامسة لم تتم عنوانها « إما » ومجموعة من الأقاصيص بعنوان « المغامرات الاثنتا عشرة وقصص أخرى » .

ولابد عند تأريخ حياة شارلوت برونتى من الإلمام بالجانب المشترك بين سيرتها وسيرة أختيها النابغتين إميلى برونتى وآنى برونتى فقد كانت نشأتهن فى كنف أب غريب الأطوار ، وفى بيئة غير مألوفة لها خصائصها المتفردة ذات أثر بعيد المدى فى حياة هذه الكاتبة الألمعية

أما الأب فهو قسيس من أتباع كالڤن المتشددين فى التقشف اسمه « باتريك برونتى » . وهو ابن فلاح ايرلندى فقير جداً إلا أنه منذ طفولته تطلع إلى الثقافة والمجد وأثار إعجاب قسيس قريته بذكائه المتوقد فأحسن رعايته ولقنه القراءة والكتابة وأصول الحساب واشتغل الفتى باتريك عاملا فى مصنع نسيج يدوى ليعول نفسه ويجد شمعة فى الليل يقرأ على ضوئها كل مايقع تحت يده من الكتب المدرسية وغير المدرسية . فلما بلغ السادسة عشرة وجده القسيس أهلا لأن يكون معلما فى مدرسة ملحقة بكنيسة أكبر فى بلد أكبر وهناك قضى سنوات يوجه همه كله إلى اكتساب عطف أعيان ذلك البلد وشيوخ الكنيسة واقناعهم بعلمه وتقواه حتى لقد اكتتبوا فيما بينهم بنفقات بعثة دراسية له فى جامعة كامبردج العريقة المتزمتة . وكانت سنه يومئذ نحو خمس وعشرين سنة فكان أكبر الطلاب المبتدئين فى تلك الجامعة سنا .

ويقال إنه أول شاب فى بيئته وصل إلى هذه المكانة وصار زميلا لأبناء أعرق الأسر وأغناها ، فكان لذلك أثره فى إلهاب طموحه وازدياد غروره ، ولاسيما أنه كان مفرط الوسامة . فعول على استغلال هذه الموهبة الطبيعية الوحيدة التى ورثها عن أسلافه فى توطيد مكانته فى المستوى الاجتماعى الجديد الذى يعيش فيه ، وهكذا صارت مهنة القس التى احترفها بعد تخرجه فى كامبردج وهو فى التاسعة والعشرين من العمر بمثابة مظهر مموه للزهد والتقشف يستر باطناً يموج بالطموح الدنيوى .

وقضى باتريك ست سنوات يبحث عن عروس واسعة الثراء يغريها جماله وترفع ثروتها من خسيسته

فخطب أكثر من فتـــاة ثم تخلى عنهن كلما تكشف له الاختبار عن هبوط ثروتهن الحقيقية دون المستوى الذى يتظاهرن به فكرهه الناس وتحطمت قلوب كثيرات بسببه واضطر للانتقال من إقليم إلى إقليم فراراً من سخط شعب كنيسته عليه . وهكذا انتقل من كنيسة بمقاطعة إسكس الجميلة المأنوسة إلى كنيسة فى منطقة الأحراش والمستنقعات الموحشة بمقاطعة يورك شاير .

ولما أوفت سنه على الخامسة والثلاثين طامن من طموحه ورضى بخير واقع ممكن وإن كان دون أحلامه بكثير ، فتزوج من ماريا برانويل ، وسنها يومئذ ثلاثون سنة غير عابئ بضآلة جسمها وضعف بنيتها وتجردها من الجمال لأن لها إيراداً خاص يبلغ خمسين جنيها فى السنة وهو مبلغ تصل قيمته الحقيقية على حسب معدل الأسعار فى الوقت الحاضر إلى أكثر من خمسمائة جنيه وكما ارتضى منها هذا الدخل الذى لا يسلكها بين صاحبات الملايين كما كان يرجو ويحلم ، ارتضى منها أن تكون سليلة أسرة محترمة من الطبقة الوسطى وان لم تكن لها أرومة معرقة من طبقة أصحاب الألقاب الأرستقراطيين التى كان يتمنى أن يصهر إليها .

وبعد عقد الزواج فى سنة ١٨١٢ بفترة قصيرة . رضى پاترك برونتى بالعمل فى أشد مناطق المقاطعة وحشة وسوء مناخ لأنها تدر راتباً أكبر . ولأنه أيضاً كان يكره الاختلاط بالفلاحين . ولا يريد الاتصال بالناس بعد أن ضنت عليه الأيام بالمظهر الذى يبهرهم والمكانة الاجتماعية التى ترفعه إلى مقام السادة . وكان بيته خلف تلك الكنيسة مبنياً بالحجر بمعزل عن القرية فوق تل صغير لا يرى الناظر منه سوى المستنقعات والأحراش على مدى البصر من كل جهة ، إلا من جهة واحدة تنتثر فيها المقابر الكئيبة .

وفى هذا الجو القابض ولدت خمس بنات وغلام فى فترة لا تزيد على ستة أعوام . ثم ماتت الأم فى سنة ١٨٢١ بالسرطان فجاءت أختها اليزابث برانويل لرعاية الأيتام الستة ، وكانت كبراهن ماريا فى السابعة من عمرها . أما شارلوت فكانت فى بداية عامها السادس وأما أصغرهن آن فكانت سنها لا تتجاوز بضعة شهور. وطرح باتريك برونتى شـــباكه مرة أخرى ليظفر بعروس غنية . مجرباً حظه بين صفوف الأرامل المسنات . والعوانس القبيحات . ولكن القدر عاكسه ، فثارت كبرياء الرجل وقرر الاضراب عن الزواج . وضرب على نفسه وأسرته عزلة أشبه بعزلة سكان الأديار . وتبدى حقده على الدنيا والناس فى تلك الصرامة التى فرضها على أطفاله الصغار وتقتيره عليهم . فكان يعتبر اللحم ترفاً شهوانياً لا يتفق مع التقوى . ويعتبر استخدام الأبسطة فى ذلك الجو الرطب بذخاً يحرم صاحبه من ملكوت السماء . ويحرم عليهم إشعال النار فى المدافئ لأنه يفزع من خطر الحريق . فكان الصغار المساكين يرتجفون من البرد معظم السنة ! .

وخوفاً من الحريق أيضاً أبى أن يزود البيت بالستائر . فكانت المقابر والأحراش تبدو على الدوام تحت أنظار سكان البيت من خلال النوافذ . أما داخل البيت فكل شىء يوحى بالصلابة والجهامة ، من سحنة الأب العابسة ، وصمته وتجهم كلماته القليلة وصوته الأجش ومعاملته الفظة ، إلى الأرض الحجرية والسلالم الداخلية المنحوتة فى الحجر . والأرض والجدران كلها عارية لا زخرف فيها يريح العين ، ولا دفء يأنس إليه البدن ولا لين فى المقاعد تستريح إليه النفس . فوسائل الراحة العادية كانت فى نظر ذلك الرجل رجساً محرماً حتى الكراسى لم يكن لها أذرع وأظهر ! .

وفى هذا البيت المغلق على أصحابه نشأ الأيتام الصغار ، لا يزورهم أحد ولا يزورون أحداً . يتعلمون فى البيت على يد الخالة ، وبارشاد من الوالد القس الذى يغلق على نفسه باب حجرته معظم الوقت ويتناول طعامه

بمفرده فيها . وازداد شعورهم بالوحشة حين ماتت فتاتان على التعاقب من البنات الخمس . فلم تبق منهن إلا ثلاث شقيقات فى التاريخ . وكانت شارلوت أكبرهن وأسبقهن إلى الشهرة بقصتها العظيمة «چين اير».

وقبل وفاة الشقيقتين الكبرين اليزابيث وماريا فى سنة ١٨٢٥ بالسل كانتا قد دخلتا فى سنة ١٨٢٤ ومعهن شارلوت واميلى مدرسة لبنات رجال الدين كانت الحياة فيها أشد قسوة من الحياة فى بيت أبيهن ، فاجتمع لهن فيها إلى سوء الطعام قلة كمياته ، فكن نصف جائعات طول الوقت . فلما ماتت ماريا واليزابيث أعيدت شارلوت واميل إلى البيت ونهضت شالوت منذ سنة ١٨٢٥ أى وهى فى بداية العام العاشر من عمرها بدور الأم الصغيرة والشقيقة الكبرى لشقيقتيها وشقيقها اليتامى، ومنذ هذا التاريخ أيضاً بدأ النشاط الأدبى للشقيقات الثلاث ولا سيما شارلوت ، فكتبن تراثاً ضخما من المسرحيات وأقاصيص المغامرات الخيالية لتسلية أنفسهن فى الظاهر ، وللتنفيس عن نشاطهن الايجابى المكبوح فى واقع الأمر . وكتبن كذلك أشعاراً كثيرة . وقد جمعت كتابات الشقيقات الثلاث التى ترجع إلى هذا العهد الباكر من الصبا واليفاعة فى اثنين وعشرين مجلداً مخطوطاً كتبت معظمها شارلوت وقوام كل مجلد منها نحو مائة صفحة بخط دقيق جداً تصعب قراءته بغير المجهر . كتبت كلها فى مدى أقل من سنة ونصف . وقد أجمع الدارسون على أن ما كتبته شارلوت فى مستوى يعتبر إعجازاً لصدوره عن فتاة بين سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة .

ويصف الذين رأوا شارلوت برونتى سنة ١٨٣١ وهى فى الخامسة عشرة من عمرها تقريباً ، بضآلة الجسم والنحافة الشديدة ، بل إنها كانت فتاة « هشة » تتميز بشعر بنى اللون ناعم غزير وعينين واسعتين بنيتين تشوب إنسانيهما شذرات من ألوان شتى ، من بينها اللون الأحمر . وفى نظراتهما هدوء ووعى ولهما سحر خاص حين تصغى لمن يحدثها . حتى إذا أثار اهتمامها شىء طريف تألق فيهما وهج غريب كأنما أضىء فجأة وراء عدستيهما مصباح قوى! أما سائر ملامح وجهها فعادية تتميز بالوضوح فى غير جمال . ولكن قوة تأثير العينين كانت تغطى دائماً هذا النقص البدنى . فلا تكاد تشعر بالفم الواسع والأسنان المعرجة والأنف الكبير . أما يداها وقدماها فمن أصغر ما يمكن . فحين كانت تصافح أحداً — حتى النساء — كان يلاحظ على الفور صغر حجم تلك اليد ودقتها ونعومتها ، كأن ملمسها خفقة من جناح طائر ! .

وفى سنة ١٨٣١ هذه أرسلت شارلوت إلى المدرسة كرة أخرى . ووجدت رعاية الأم لدى الآنسة «وولر» معلمتها الجديدة . وقد دامت صلتها إلى آخر حياتها ، كما ربطتها الصداقة بفتاتين من الطالبات مدى العمر أيضاً . ومن عجب أن هذه التى تعتبر من أكتب الكاتبات فى تاريخ الآداب العالمية ، كانت فى سن الخامسة عشرة ، فى نظر معلماتها وزميلاتها من أجهل الطالبات — لأنها لم تكن تعرف شيئاً عن النحو وقواعد اللغة على الاطلاق . أما معرفتها بالجغرافيا فكانت ضئيلة للغاية . ولكنها فى الانشاء لا يشق لها غبار ! وقدرتها على الرسم مذهلة . وجهلها بالألعاب مطبق ، فهى لم تعرف اللعب فى حياتها قط ، ولا تريد أن تعرفه . وانتهى الأمر بمن حاولن إغراءها باللعب معهن أن تركن اللعب ليلتففن حولها ساعات من النهار والليل ، تقص عليهن من نسيج خيالها أعجب القصص التى تدور وقائعها فى مجاهل الأحراش .

وكانت فكرتها عن التعليم سابقة لزمنها فالناظرة والمعلمات هدفهن حشو الأذهان بالمعارف والعلوم . أما هى فتأبى إلا أن يكون التعليم تنميةللأذواق والمدارك فإرهاف العقل وتشكيل الذوق هما الهدفان الجديران

بكل تربية حسنة . وأما المعلومات المحددة فالظروف تلقى على كل فرد نصيباً منها أكثر مما يحتاج إليه . ولذا كان أكبر اهتمامها فى المدرسة بتوسيع معرفتها بكل مايتعلق بالرسم والنحت والموسيقى والشعر والقصص .

وكانت قدرتها على التصوير بالكلمة المعبرة تسبب إزعاجاً شديداً لزميلاتها فما أكثر الكوابيس التى أيقظتهن صارخات من أثر ماترويه لهن شارلوت « الجاهلة » من حكايات ارتجلتها لتسليتهن .

وبعد عام ونصف عادت شارلوت إلى البيت لتتولى تربية إخوتها مدة ثلاث سنوات . عادت بعدها إلى المدرسة معلمة ودخلت أختها إميلى هذه المدرسة عينها تلميذة لمدة ثلاثة أشهر ثم تركتها لتخلى مكانها للشقيقة الصغرى آن لأنها لم تطق البعد عن جو الأحراش الذى عشقته . ولما نقلت المدرسة مقرها إلى قرية أخرى ساءت صحة شارلوت فعادت مع أختها آن إلى بيت أبيها . وتقدم لطلب يدها شقيق إحدى زميلات الدراسة واسمها « إلن نوسى » . ولكنها رفضته لأنها لا تشعر نحوه إلا بمودة عادية ، والزواج فى نظرها ينبغى أن يكون نتيجة إحساس الزوجة بتقديس لشخصية الزوج يجعل حياتها بدونه مستحيلة !

وصار من الواضح أن لا مستقبل للفتيات الثلاث سوى التدريس . فهى المهنة المستقلة التى يعتمدن فيها على معاشهن من غير أن ينزلن إلى مرتبة الخدم وان لم ترتفع منزلتها إلى مرتبة السادة المتبوعين .

وكان وجه الصعوبة فى هذا الاتجاه أن الشقيقات الثلاث غير شغوفات بالأطفال . ومستواهن العلمى لا يؤهلهن لتدريس الفتيات الناميات ، لأنهن لا يحذقن الموسيقى حذق الخبيرات ولا يعرفن من اللغة الفرنسية التى لابد أن تتعلمها الفتاة الراقية إلا القليل .

وعملت شارلوت مربية فى عدة بيوت ، ثم استقر الرأى على أن تفتتح الفتيات الثلاث مدرسة يدرنها معاً لبنات الأسر المتوسطة ، على أن تزودهن الخالة إليزابث برانويل برأس المال اللازم لذلك . ولكن لابد قبل افتتاحها من أن تتم الشقيقتـــان الكبيرتان شارلوت واميلى تأهيلهما لهذا المستوى من التعليم . فرحلتا إلى بروكسل فى فبراير سنة ١٨٤٢ ودخلتا معهداً داخلياً للبنات . أما آن فاعتزلت عمل المربية وعادت إلى البيت . وأما الأخ الأصغر برانويل فعمل كاتباً فى شركة سكة حديد منشستر وتخلى عن الاشتغال بالفن :

ووفقت الشقيقتان توفيقاً كبيراً فى تعلم اللغة الفرنسية ، حتى أن مدام « إيجيه » صاحبة المعهد عرضت عليهما أن تبقيا فتتولى شارلوت تدريس اللغة الانجليزية ، وتتولى إميلى تدريس الموسيقى . إلا أن مرض خالتهما ثم وفاتها المفاجئة اضطرتهما للعودة إلى الوطن حيث تركت لهما الخالة المتوفاة فى وصيتها مبلغاً يكفى لإنشاء المدرسة التى يصبوان إليها ، ولكن شارلوت لم تلبث أن عادت إلى بروكسل لتدرس اللغة الانجليزية لفتيات بلجيكيات، ولتتعلم فى الوقت نفسه اللغة الألمانية ، ثم رجعت إلى الوطن على أثر أنباء محزنة عن سوء سلوك أخيها الصغير وعن هبوط قوة إبصار أبيها هبوطاً سريعاً . وافتتحت الشقيقات الثلاث المدرسة ، ولكنها أخفقت فى اجتذاب الطالبات إليها . وأصبح الأب شبه أعمى ، وازداد ضعف بصر شارلوت ، فباتت تتوجس من اصابتها بالعمى أيضاً . ثم فصل شقيقها من عمله بعد أن أدمن الأفيون والشراب ، وصارت تنتابه حالات من الهذيان والهياج من أفظع ما يكون . ولم تكن هناك لمحة مشرقة فى تلك الفترة المحزنة من خريف سنة ١٨٤٥ سوى نشر مجموعة أشعار الشقيقات الثلاث بأسماء مستعارة مذكرة ، لأن النظرة يومئذ للمرأة تضعف الثقة بانتاجها الأدبى . وكان النشر على نفقتهن ولم يحقق

توزيعاً على الاطلاق إلى أن وصلت الشقيقات الثلاث إلى الشهرة من طريق غير طريق الشعر .

وفى صيف سنة ١٨٤٦ بحثت الشقيقات الثلاث عن ناشر لمجلد واحد ضخم يتضمن ثلاث قصص طويلة نسبياً هى « أعالى ويذرنج » لإميلى ، و «أجنس جرى» لآن و « الأستاذ » لشارلوت .

ومضت فترة طويلة دون أن تلقى هذه المساعى نجاحاً . وازدادت الكآبة المطبقة على الشقيقات الثلاث. وفى هذا الظرف الحالك شرعت شارلوت تكتب « چين إير » . وفى ٦ أكتوبر سنة ١٨٤٧ قبل الناشران سمث وإلدر نشر قصة « چين إير » فى ثلاثة مجلدات .

وقد تركت تلاوة القصة فى نفوس أعضاء لجنة القراءة بمؤسسة النشر المذكورة أثراً قوياً . وقال أحدهم لصاحب المؤسسة إنها معجزة فتشكك فى حكمه وأحال المخطوط إلى عضو آخر اسكتلندى ليس من طبعه التحمس الشديد لشىء ، فاذا هذا الرجل يعترف بأنه لم يستطع أن يترك المخطوط من يده قبل أن يتم قراءته مع بزوغ الفجر ! أو أغرى ذلك مستر سمث بأن يطالع المخطوط شخصياً . وبعد يومين اعتذر للسيدين عضوى اللجنة لأنه ظنهما يبالغان فاذا هما لم يعدوا الحقيقة الواقعة قيد أنملة . وأمر بطبع القصة على الفور فنشرت بذلك الاسم المستعار « كرربيل » ولقيت نجاحاً كبيراً جداً فما وافى شهر ديسمبر من السنة نفسها حتى صارت حديث الناس على كل لسان وموضع تعليق الكتاب والنقاد فى المجلات . وعندئذ تجاسرت شارلوت على الافضاء بالنبأ المثير إلى والدها وقرأت له فقرات من تعليقات النقاد عليها . فأظهر رضاء محدوداً عن ملكتها الأدبية ، وكأنه لم يزل حاقداً على فشله فى أن يكون كاتباً . ولا ينبغى أن ننسى أن النساء فى نظر أولئك المتنطسين الغلاة (البيوريتان) لم يخلقن إلا لخدمة البيوت ووعاء للنسل ولا يصلحن إلا جسداً يكون الرجل رأسه المفرد، فلا فلاح لهن فى العلوم والفنون .

وفى هذه الأثناء صار شغل الجماهير القارئة الشاغل فى انجلترا كلها أن تكتشف حقيقة شخصية «كرربيل». ولبثت شارلوت تتكتم الحقيقة حتى بين صديقات الدراسة الحميمات ، إلى أن أعلن الناشرون الحقيقة ، وقد صاروا الناشرين لمؤلفات آن واميلى أيضاً بتأثير شارلوت التى كتبت مقدمة ضافية لأعالى ويذرنج وأجنس جرى . وقد ظن النقاد أن مؤلفة الأعالى هى بعينها مؤلفة چين اير فاضطرت الشقيقتان للسفر إلى لندن وإظهار الحقيقة وإقامة البرهان على أنهما اثنتان وليستا شخصية واحدة ، وإنهما امرأتان وليستا من جنس الذكور . ولم يكن الناشر يراسل شارلوت إلا عن طريق البريد ، وكان يظنها رجلا اسمه الحقيقى كرربيل فعلا . فلما وضعت شارلوت خطاباته إليها بذلك الاسم فى يده سألها باستنكار .

— كيف وصلت إلى يدك أيتها الشابة هذه الرسائل؟

ولم يصدق الرجل الوقور أن الفتاتين الهزيلتين المكتسيتين بثياب الحداد الريفية هما المؤلفان الشهيران كرر وآكتن بيل ! .

وهكذا انفجرت الحقيقة الجديدة فأحدثت دوياً هائلا فى انجلترا وأمريكا .

وفى سبتمبر سنة ١٨٤٨ مات الشقيق الأوحد برانويل ، فلزمت اميلى برونتى البيت ولم تخرج من بابه إلا بعد ثلاثة أشهر محمولة على الأعناق إلى قبرها. وفى ٢٨ مايو سنة ١٨٤٩ لحقت بها آن بعد أن أتى داء السل على البقية الباقية من حيويتها ، وبقيت شارلوت وحيدة .

أما قصة « شيرلى » فقد بدأتها شارلوت عقب نشر « چين اير » مباشرة وجعلت بطلتها شيرلى نفسها صورة لشقيقتها إميلى لو أنها أوتيت فراهة الصحة وجاه

الثراء والرخاء ونشرت هذه القصة بعد وفاة آن بخمسة أشهر وقوبلت من النقاد بالثناء والاعجاب.

وخرجت شارلوت من عزلتها فترددت على مدينة لندن وخالطت مشاهير الأدباء ، ومن بينهم الكاتب الأعظم فى نظرها « ثاكرى » . وفى ربيع ١٨٥٠ قامت برحلة إلى اسكتلنده ، ثم إلى لندن مرة أخرى سنة ١٨٥١ وكانت صحتها قد بدأت فى الانحاط ، وفى غضون مقاومتها للمرض والاعياء كتبت قصتها « ڤيبت » التى نشرت فى سنة ١٨٥٣ فاستقبلها الناس بعاصفة اجماعية من الإطراء والثناء .

وفى هذه المدة طلب يدها رابع رجل فى حياتها . وهو القسيس الثانى مساعد أبيها . ولكن والدها رآه دون قدرها ورفض طلبه واعتزل الرجل العمل ورحل ولكنه لم ييأس . وبعد سنة لان مستر برونتى وهكذا تزوجت شارلوت من مستر نيكولز القسيس المساعد فى ٢٩ يونيه سنة ١٨٥٤ فأخلدت لحياة الزواج والبيت ووضعت القلم من يدها إلى الأبد .

ولكنها لم تهنأ طويلا بحياة الزواج ولا بحياة الأمومة المرتقبة بعد أن باتت تنتظر طفلا يسعدها كما أسعدها زوجها الذى أحبته غاية الحب ، حتى أن آخر كلماتها يوم ماتت فى اليوم الأخير من مارس سنة ١٨٥٥

ـــ ما كان أشد سعادتنا معاً !

وهكذا انتهت حياة شارلوت برونتى بعد عامين من نشر آخر قصة لها أو أقل .

٢ ـــ قصة جين إير

وفى مزيج كامل من الواقعية المستمدة من تجربة المؤلفة الحية فى البيت وفى المدرسة وفى البيوت التى عملت فيها مربية للأطفال . ومن خيالها الفنى الذى تشوبه رقة رومانسية ، استطاعت أن تقدم لنا على لسان « جين إير » قصة حياة نابضة واضحة المعالم متكاملة الأبعاد حافلة بالصدق والعمق والشاعرية .

وتبدأ القصة بتصوير جين اير لطفولتها الشقية ، فقد عدمت أبويها وهى فى العام الأول من عمرها . وكانت ابنة قسيس فقير تزوج من فتاة سليلة أسرة كريمة مرموقة أحبته فقاطعتها أسرتها الثرية . ولكن خال جين القاضى الثرى « ريد » صاحب قصر جيتسهد آواها وتكفل بتربية ابنة أخته اليتيمة فى عطف وحنان بالغين بيد أن القدر أبى إلا أن يموت خال الفتاة بعد قليل فيتركها تحت رحمة زوجته الأرستقراطية المتعجرفة التى أذلتها وتفننت مع أطفالها فى تعذيبها . فكانت تحبسها لأتفه الأسباب فى حجرة مهجورة مخيفة يقال إن الأشباح كانت تسكنها . فلا عجب أن تصاب جين الصغيرة بحمى عصبية كادت تقضى عليها . لولا رقة قلب الصيدلى « لويد » الذى كان يعالج خدم القصر فقد لزم فراشها وأدرك سبب علتها فعمل على إنقاذها ، ونصح لمسز ريد أن تدخلها مدرسة داخلية تشرف عليها جمعية خيرية تربى اليتامى من أبناء رجال الكنيسة الذين لم يخلفوا ثروة لبناتهم .

وكانت هذه هى مدرسة « لوود » التى دخلتها جين ، فاذا معهد ظاهره الرحمة وباطنه العذاب الأليم للتلميذات الفقيرات المسكينات ولولا رقة قلب الناظرة مس تمبل التى أعجبت بذكاء جين إير ومواهبها الفنية لكانت قسوة مدير المعهد كفيلة بالقضاء عليها .

ونعمت جين بتقرب هذه الناظرة العطوف التى تعهدتها وجعلت منها مريدة خاصة لها بحيث أتمت دراستها بتفوق مذهل فى ست سنوات ، ثم عينت على إثر تخرجها معلمة للصفوف الصغرى فى هذه المدرسة عينها ، وبذلك قضت سنتين أخريين فى القسم الداخلى فى عزلة تامة لا تجد مايسليها غير رسم اللوحات الطبيعية والدأب فى تعلم اللغة الفرنسية .

وتزوجت الناظرة مس تمبل ورحلت عن المدرسة ، فضاقت جين اير بحياتها المجدبة فى « لوود » ولم تطق

البقاء بعد ذلك ، ونشرت إعلاناً فى إحدى الصحف تطلب فيه وظيفة مربية أطفال صغار فى أسرة محترمة ، وسرعان ما جاءها رد من قصر ثورنفيلد بالقرب من قرية ميلكوت لتشرف على تربية طفلة فرنسية الأصل فى العام الثامن من عمرها .

ولم تتردد چين فى التوجه إلى قصر ثورنفيلد ، فاستقبلتها مديرته العجوز مسز فيرفاكس وتلميذتها الطفلة أديلا ، وحاضنتها الفرنسية صوفى . أما رب القصر مستر روشستر فكان فى رحلة كعادته فى معظم الأوقات ، فهو لا يلم بقصره إلا فى أحايين خاطفة ، يصل فجأة ويرحل فجأة .

وتقول چين اير بعد ذلك إنها أحبت تلميذتها وحياة القصر الهادئة ، كما أحبت صحبة مسز فيرفاكس ، وعاش الثلاثة على سجيتهن بغير تكلف . وسمعت چين من مسز فيرفاكس كلاماً كثيراً عن مستر روشستر وكيف أنه رجل عادل حاد الطبع لا يدرى أحد أهو ساخط أم مسرور ، ولا ما يستحسنه من الفعال أو يستهجنه ، فالمرء دائماً فى حيرة من أمره . ولذا حمدت چين الله على غياب مستر روشستر الطويل .

وذات يوم كانت تطوف مع مسز فيرفاكس حجرات الطابق العلوى المهجور ، فسمعت ضحكة شاذة الجرس تهتك حجاب الصمت الرائن على القصر ، فاقشعر لها بدنها . وتذكرت ماسمعته من بعض الخادمات عن الأرواح الشريرة التى تسكن القصور العتيقة والأبراج المهجورة ، وتحرك صدى مخاوفها فى طفولتها الحافلة بالفزع والرعب فى قصر چيتسهد حين كانت تعيش فى كنف زوج خالها مسز ريد .

ورأت مسز فير فاكس اضطراب چين الشديد ، فأخذت تهدئ من روعها مؤكدة لها أن هذه الضحكة الشاذة تصدر عن خادم غريبة الأطوار بهـــا مس خفيف ، بيد أنها مأمونة الجانب ، تأتى من القرية للقيام بأعمال التنظيف فى بعض الأيام ، وهى امرأة حمراء الشعر عصبية الملامح تدعى « جريس پول » .

فلم يسع چين إلا أن تصدق هذا التفسير ، لكنها عادت إلى الشك والتوجس بعد أن سمعت تلك الضحكة بعينها تشق صمت الليل بين الحين والحين .

وزاد من حيرتها أن « جريس پول » هذه كانت تتجنب چين إير دائماً . وهى تقوم بأعمالها فى الطابق العلوى المهجور ولاتراها إلا متسللة هابطة إلى المطبخ كأنها الشبح لتحمل كميات من الطعام تصعد بها إلى حجرتها ، فاذا أرادت أن تتحدث إليها أعرضت عنها فداخل چين إير الاعتقاد بأن جريس پول هذه امرأة مخبولة بعض الشئ حقا . وأن نوبات خبالها هى التى تدفعها إلى إرسال تلك الضحكة المزعجة .

وانقضى على چين اير فى قصر ثورنفيلد نحو ثلاثة أشهر ، أقبل فيها الشتاء . وذات يوم مشمس خرجت چين اير سائرة على قدميها نحو القرية لتشترى من هناك بعض مايلزمها . وجلست فى بعض الطريق الطويل لتستريح عند قمة ربوة ، ولتمتع النظر بثوب الثلج الناصع البياض الذى يسربل كل شئ حولها على مدى البصر وإذا كلب ضخم فى سواد الليل البهيم يثب صوبها فجأة وفى إثره فارس فوق صهوة جـــواد أســــود .

وانزلقت سنابك الجواد فوق الجليد الأملس : فكبا وسقط من فوقه راكبه ، فتطوعت چين إير بكل رقة ودماثة لانهاض الرجل من سقطته . فتقبل منها عونها العطوف بفظاظة مستهجنة تشبه سحنته كثيراً فهو عملاق فظ الملامح أسمر اللون كث الحاجبين نفاذ النظرات .

وطلب منها العملاق الغريب الفظ أن تساعده رغم عرجه على ركوب جياده ، ثم تركها من غير أن يشكرها . فعادت إلى قصر ثور نفيلد مكتئبة النفس

وإذا هى تفاجأ بهذا الرجل الفظ هناك . وحسبته زائراً فإذا هو مستر روشستر رب القصر نفسه !

وقضت چين فترة تعسة لأن مستر روشستر كان يعاملها بجفاء حيناً وبدماثة حيناً آخر ، حتى باتت لاتعرف رأسها من قدميها . فهو متغير الأطوار ينقلب من النقيض إلى النقيض فى الجلسة الواحدة بغير مبرر وبغير مقدمات .

وزاد ذلك من فضول چين فراحت تستوضح مسز فيرفاكس تعليل هذا التقلب فى مزاج مستر روشستر ، فعرفت منها أنه يعانى من آثار شقاء طويل فى مستهل حياته ، لأن والده حرمه من الميراث وخص بثروته كلها أخاه الأكبر . فهاجر من إنجلترا وعاش فى الخارج شريداً حاقداً إلى أن مات شقيقه الأكبر فجأة وورث كل شيء .

ويبدو أن الفضول لم يكن من جانب چين وحدها فقد أخذ مستر روشستر يتعقبها بالأسئلة الدقيقة والاستجوابات الفاحصة عن ماضى حياتها وطفولتها وصباها فتحدثه ببساطة وصراحة تامتين عن كل شيء ولا تحاول التظاهر أمامه بغير حقيقتها .

وتدرج روشستر بعد ذلك إلى نوع آخر من الاستجواب الفاحص . فصار يجالسها فى المساء فترات طويلة فى المدة التى قضاها بالقصر لعلاج ساقه المهيضة ويفاجئها على غير انتظار بأسئلة فى موضوعات عامة تتعلق بالمجتمع وأحوال الدنيا ، كأنه يريد أن يعرف مدى مداركها وطريقة تفكيرها ، فكانت لاتتردد فى الإجابة عن أحرج الأسئلة بصراحة تامة وجرأة وتعزز رأيها بالأسانيد . فكانت عيناه تلمعان سروراً إذ يجدها مستقيمة فى ردودها كاستقامته القاطعة فى اسئلتها .

وكأنما أمن جانبها ووثق بها ففتح لها كتاب حياته الماضية ، وصارحها بما كان من غواياته وضلالاته . وكيف أن أديلا ابنة راقصة فرنسية كان يعاشرها فى باريس فزعمت له أنها ابنته وتركتها بين ذراعيه وهربت مع عشيق آخر فعطف عليها وتعهد بتربيتها .

وهكذا أنست چين إلى روشستر وطبيعته الصريحة الواضحة ، واستساغت خشونته التى تدل على استقامة طبع ، وصارت تتطلع إلى حلول المساء كى تجلس إليه وتسامره ذلك السمر الذى يشبه مباريات الرياضة أو تمرينات المبارزة بين عقلين وطبعين صريحين ، وخفق قلبها له على تجرد سحنته من الجمال .

وذات يوم افتقدته چين فوجدته قد رحل فجأة عن القصر من غير أن يخبرها ، وعلمت من مسز فيرفاكس أن غيابه سيطول أسبوعاً — وكانت ساقه قد شفيت — يقضيه فى الصيد ضيفاً على أحد القصور المجاورة . فقضت چين ذلك الأسبوع فى هم وقلق ، وأيقنت أن فؤادها البكر قد تعلق بسيدها تعلقاً لا أمل فيه .

وقبل نهاية ذلك الأسبوع وصلت مسز فيرفاكس رسالة من سيدها يأمرها بإعداد القصر إعداداً لائقاً لاستقبال ثلة من السيدات النبيلات والسادة الوجهاء سيقدمون فى صحبة مستر روشستر بعد يومين .

وانهمك الجميع بما فيهم چين فى إعداد حجرات القصر فسنحت الفرصة لچين أن تسمع ثرثرة الخادمات اللواتى جيء بهن من القرية للأعمال الاضافية ، وكان مما سمعته أن النبيلة بلانش إنجرام ستكون واسطة العقد بين هؤلاء الضيوف ، وهى فتاة حسناء يعلم الجميع أن مستر روشستر متيم الفؤاد بها وأن خطبتهما ستعلن قريباً .

ووقع هذا النبأ على قلب چين وقوع الصاعقة ، وأحست عقارب الغيرة تلدغها وأدركت أنها لن تطيق البقاء بعد ذلك ، وعولت على البحث عن وظيفة أخرى بعد رحيل الضيوف عن القصر .

ولقيت چين الأمرين من غطرسة بلانش ووالدتها وبقية الصحاب المتعجرفين . ولكنها عرفت كيف تملك زمام أعصابها والغيرة تمزق قلبها لأن هؤلاء الضيوف أشعروها بالفارق الضخم بينها وبين سيدها وحبيبها من حيث الثراء والجاه والمكانة . إلا أنها لم تستطع أن تروض قلبها على التخلى عن حبه . ولكن سيدها وحبيبها كان يرقب مشاعرها وسلوك القوم معها . فصارحها على انفراد بأنه يقدرها ويعتبرها صديقته وسنده الوحيد فى الحياة ولن يفرط فيها لأنه سيشعر بالضياع إذا افتقدها إلى جواره .

وحضر إلى القصر زائر غريب اسمه ميسون ليقضى الليل فاستيقظت چين فى تلك الليلة على صرخة مدوية مرعبة ، تلاها صوت شجار فى الحجرة التى تعلو حجرتها واستيقظ جميع الضيوف ، ولكن روشستر طمأنهم مدعياً أنه كابوس أصاب إحدى الخادمات بنوبة طارئة ثم صحب چين إلى الطابق العلوى فاذا فى إحدى الحجرات مستر ميسون جريحاً ينزف منه الدم . فضمدت چين جرحه بعد أن غسلته وخرج روشستر سرا ليأتى بطبيب قرر أن فى كتف ميسون أثر عضة وحشية . وكانت چين واثقة أن التى هاجمته هى جريس پول لأنها عرفت ضحكتها الشاذة ورحل ميسون قبل انبلاج الصبح حتى لا يراه الضيوف وتثور ضجة ولم يلبث الضيوف أن رحلوا أيضاً فى ذلك اليوم .

وبدا من روشستر أنه يريد أن يربط حياته بحياة چين ، ولكنه يخشى عواقب زلة غامضة تردى فيها حين كان شريداً فى الخارج ، ولم يفصح عن هذه الزلة إلا بقوله إن ميسون يعرفها ولكنه آمن من جانبه لأنه يعيش فى الخارج وسيرحل ذلك اليوم إلى الخارج مرة أخرى .

وفى هذا الظرف تلقت چين رسالة من زوج خالها مسز ريد تدعوها لزيارتها لأنها على شفا الموت . وكان ابنها قد بدد ميراثه وساءت سيرته . فسمح لها مخدومها مستر روشستر على مضض بالذهاب إلى جيتسهد حيث عرفت من المحتضرة أن قريباً لأبيها اسمه چون إير أرسل منذ سنوات إلى مسز ريد من جزيرة مديرا حيث هاجر يبلغها أنه جمع ثروة ضخمة ويريد أن يتبنى چين ليورثها أمواله ، ولكن المرأة القاسية زعمت له أنها ماتت ، وهى تطلب من چين أن تغفر لها هذا الذنب ! .

وطال احتضار مسز ريد وچين تقوم بخدمتها حتى ماتت ، وكان قد انقضى نحو شهر فعادت إلى مخدومها وحبيبها الذى ألهب حبه لها ذلك الفراق فأغدق عليها حنانه ثم فاجأها ذات يوم بطلب يدها لأنها المرأة الوحيدة التى أحبها واحترمها ووثق بها ، فهى نور حياته وملاكه الحارس ، وتركته تحت وطأة الذهول والسعادة يهصر عودها بين ذراعيه ويلتهمها بقبلاته ، مكرراً لها أنها الفتاة الوحيدة التى يثق بأنها أحبته لشخصه لا لثرائه . وأن بلانش أنجرام رسبت فى الامتحان عندما زعم لها أن ثروته لاتبلغ ربع حقيقتها الظاهرة فأعرضت عنه .

وأخذ القصر يستعد لعقد الزواج بعد شهر واحد مضى كالحلم . وفى أواخره تغيب روشستر عن القصر لاستتمام بعض لوازم الزواج . فإذا چين تستيقظ فى الليل على امرأة مخيفة الشكل ترفع فى يدها شمعة وتتأمل ثوب الزفاف المعلق على المشجب . ثم ترفع الطرحة وتضعها على رأسها وتتطلع فى المرآة كاشرة الأنياب فى وحشية ، ثم تمزق ذلك الخمار وتدوسه بقدميها ، ثم تنصرف وچين معقودة اللسان من الذعر ولما عاد روشستر فى اليوم التالى حاول إقناعها أن ذلك كان كابوساً وأن الخمار الممزق لابد قد عبثت به جريس پول فى إحدى نوبات خبالها . واضطرت چين لتصديقه على مضض .

وفى ساعة الزفاف فى كنيسة القصر برز فجأة مستر ميسون الزائر الغريب عندما قال القسيس العبارة المعتادة :

ــ من كان يعرف سبباً يحول دون زواج هذين الشخصين فليتقدم الآن أو فليصمت إلى الأبد !

وأعلن مستر ميسون أنه يعرف سبباً من هذا القبيل فمستر روشستر متزوج من امرأة مجنونة تعيش حبيسة فى إحدى حجرات الطابق العلوى بالقصر ، وأن هذه الزوجة شقيقته .

ولم يجد روشستر بدًّا من الاعتراف ، وراح يستعطف چين كى لا تتخلى عنه فلن يستطيع الحياة بدونها بعد أن ذاق السعادة بقربها ولكنها رفضت بحزم وهربت تحت جنح الليل وهى فى حالة عقلية أشبه بالحمى .

وكادت تهلك وهى هائمة على وجهها لولا أن أنقذها قسيس شاب فى إحدى القرى المنعزلة ، وأحبها وعرض عليها الزواج على أن ترحل معه إلى المستعمرات ليعملا معاً فى التبشير . وكادت تقبل لولا أنها سمعت صوت روشستر يرن فى أذنيها يناديها بضراعة أن تعود إليه .

ومرة أخرى عادت إلى ثورنفيلد وقد مضت شهور قضتها فى النقاهة ضيفة على ريڤرز المبشر التقى فإذا بها تجد القصر أطلالا بعد أن أشعلت فيه الزوجة المجنونة النار . وفى بيت ريفى منعزل بالقرب من القصر وجدت روشستر وقد أصابه العمى والتشويه من أثر الحريق الذى ذهب ضحيته القصر والزوجة معا ، فتزوجا ووجدا السعادة أخيراً .

* * *

أما وقد عرفنا فى إيجاز شديد هيكل هذه القصة فقد آن لنا أن نبحث عن سر شغف جمهور القراء بها وليس ذلك السر عسيراً خافياً ، لأنها فى نظر الناس من سواد القارئين تجمع بين عنصرين حبيبين إلى نفوس الناس من قديم الزمن ، فهى تخاطب جانب الأحلام الطفلية على غرار ما تخاطب ذلك الجانب قصة سندريلا ، تلك الفتاة المضطهدة الضعيفة الفقيرة التى تتزوج أميراً قوى السلطان . ثم هى أيضاً قصة من قصص انتصار البشر الضعفاء على الشدائد والصعاب بفضل الثبات والمثابرة والكفاح .

وهذا النوع من القصص يعلق بأذهان الناس وقلوبهم لأنه يعبر عن مطامعهم وآمالهم ، فمعظم الرجال يزهيهم أن يكونوا حماة ذوى بأس لنسائهم ومعظم النساء يزهيهن أن يتزوجن من رجال أقوياء أشداء قادرين على حمايتهن . والجنسان كلاهما يصبوان إلى التوفيق والنجاح والتغلب على صعاب الحياة وشدائدها.

ولئن فسر هذا لنا إقبال سواد القراء وعامتهم على قصة چين إير فهو لايكفى لتفسير إعجاب النقاد الشديد بها . ولكننا نجد سر ذلك الإعجاب فى قوة تعبير الكاتبة عن العواطف بعمق وصدق رهيبين فاللوحات التى سجلت فيها آلام الطفلة چين وعذابها ورقة الطفلة هيلين ومرضها ووفاتها . ومواقف الحب الرقيقة تستولى ولا شك على مجامع القلوب ببساطة أسلوبها وعمق تأثيرها فى النفس .

إن قصة چين إير ليست حكاية رومانسية تهيىء للعواطف البشرية متنفساً خيالياً ، بل هى قصة تتميز بالصدق والإخلاص والأمانة للتجربة الإنسانية بغير جنوح إلى التزوق أو المبالغة التى تصل إلى حد الزيف فى الأدب الرخيص المريض .

ومن آيات هذه الأمانة التى تجعل القصة واقعا حيا ، تلك التفاصيل التى تفرض على القارىء الإحساس بواقعية ما يقرأ ، وإن انتصار چين يأتى فى النهاية شبيها بأحاديث العجائز فى ليالى السمر ، فهو انتصار

لم يفرش طريقه بالورد ، ويخل اكليل ظفره من أشواك ، لأنها لاتغدو بذلك الانتصار أميرة موفورة الجمال والثراء والجاه ، بل زوجة كأوساط الزوجات فى البشر فى دنيـــا الواقع ، تربط مصيرها برجل لا دماثة فى خلقه ، ولا لين فى مهاده وإنما هو رجل وعر الطبع كفيف البصر موصوم السمعة بمـــاضيه وضلالاته ، وله ابنة تربطه بتلك الصفحة الدنسة المطوية من شبابه ، فهو منبوذ من علية الناس للفضيحة التى ثارت حوله ، وهو عزوف عن المجتمع بسبب كبريائه وعاهته . فچين إير فى ذلك الإطار تتلقى من يد القدر أخيراً كأساً غير صافية من الأكدار ، ولابد لها من الشجاعة والمضاء كى تمضى فى طريقها المقسوم لها . وسعادتها بسلوك تلك الطريق هى سعادة الشجعان وأصحاب الرسالات لا سعادة من واتهم المقادير بصفو محض وهم بلهاء خاملون .

فإذا تركنا المضمون الأدبى ،وجدنا للقصة مضموناً إنسانياً اجتماعياً يتصل بكيان المرأة فى العصر الحديث من قريب جداً ، فچين إير هى أول قصة أوروبية عظيمة تمثل المرأه الحديثة وتبسط وجهة نظرها وتثبت كيانها المستقل الكريم فى المجتمع العصرى .

إن المعلمة الفقيرة التى تعيش بعرق جبينها تواجه السيد الوجيه الثرى الطاغية روشستر عن اقتناع وطيد بأنها ند له فى القيمة الإنسانية ، وأنها وهى امرأة لا تقل عنه فى قوة العقل ومضاء الروح ، وتزيد عليه فى نبل القلب ونقائه . وتصر فى جميع مواقفها معه على الانصياع لأوامر ضميرها ونواهيه بغير خوف ، ومن غير أن يكون لإغراء البذخ والرفاهية على نفسها سلطان . فهى ترفض أن تبيع نفسها لتجد الرفاهية والرغد ، لأن كنزها الداخلى أقوى عندها من ربوات الأموال وألقاب الشرف والمكانة الزائفة فى الدنيا .

وإن لديها من الشجاعة ما تقربه فى غير مراوغة لروشستر بأنها تهواه من كل قلبها ، وأنها ستظل تحبه ما عاشت . وأن وطن روحها حيث يكون هو . ولكنها تصارحه بأنها تزدريه لتفكيره فى الزواج من فتاة وضيعة النفس زائفة المشاعر لا لشىء إلا لأنها ذات مظهر وسيم وثروة طائلة .

إن مثل هذا الموقف الاجتماعى فى سنة ١٨٤٧ يعتبر صرخة تقدمية جبارة . بل إنه لم يزل حتى اليوم مستوى رفيعاً للمرأة الكريمة على نفسها ذات التفكير المستقل ، حتى بعد أن نالت المرأة كثيراً من الحقوق الاجتماعية وستظل صورة چين إير نموذجاً للمرأة التى لا شك فى أنوثتها يستحق الإكبار ويجدر أن يكون قدوة لسائر النساء .

٣ — شذرات من القصة

● كانت الحجرة الحمراء واسعة الأرجاء مهملة الشأن ، لا يستعملها أحد على الإطلاق من أهل القصر للنوم إلا فى المناسبات القليلة التى يزدحم فيها «جيتسهد هول» بالضيوف ويتعين حينئذ استخدام كل حجراته مخادع لإيوائهم . ولم يكن ذلك لعيب فيها ، فهى من أكبر ما فى القصر من حجرات ومن أفخمها رياشاوبها سرير ذو أعمدة هائلة من الخشب الثمين تتدلى بينها ستائر من نسيج فاخر أحمر اللون ، فيتبدى للناظرين وكأنه خيمة مضروبة فى وسط القاعة المترامية . أما النوافذ الكبيرة فتتدلى فوقها ستائر شبيهة بستائر الفراش . وعلى الأرض بساط كبير فاخر يماثلها فى اللون . ويماثلها فى اللون أيضاً ذلك الغطاء الذى يعلو المنضدة المجاورة للسرير الكبير أما الجدران فلونها بين الأحمرار والصفرة ، وسائر الأثاث فى الحجرة من الخشب الفاخر العتيق المهيب بلونه الداكن ....

وألقتنى مس أبوت القاسية فوق كرسى وضعته لى بالقرب من المدفأة الرخامية الضخمة الخابية فى مواجهة السرير الرهيب ، وعن يمينى ويسارى ذلك الأثاث الضخم ومرآة هائلة تضاعف من حجم الحجرة

ومن ضخامة أثاثها . ولما نهضت أمتحن قفل الباب وجدته موصداً من الخارج بالمفتاح ، فإذا أنا رهينة سجن محكم . وهممت أن أعود إلى مقعدى فإذا أنا أواجه المرآة الهائلة ويخيل إلى أنى أرى فى الظلام اشكالا ضخمة مخيفة تتربص بى . وزاد من وحشة المنظر تلك القامة الصغيرة التى تحملق فى بعينين ضاعف الخوف من اتساعهما وسط وجه شاحب ، فكأننى أرى أمامى شبحاً حقيقياً من مخلوقات الجن .

● ألفيت نفسى واقفة فوق المقعد،ومستر بروكلهيرست لا تفصلنى عنه إلا ياردة واحدة ، وأمامى مجموعة من الثياب الحريرية الزاهيـــة الألوان ترفل فيها أسرته وخاطب مستر بروكلهيرست تلك الأسرة ثم انثنى موجها الخطاب إلى المعلمات والتلميذات زميلاتى :

ـ أترين كلكن هذه الفتاة ؟

ولم يكن شك فى أنهن يريننى ، إذ كنت محط أنظارهن جميعاً وكأن عيونهن عدسات مسلطة فى شعاع الشمس على وجهى تكاد تحرقه . حرقاً . وأردف :

ـ لا شك أنكن ترينها صغيرة السن لا تختلف فى شئ من مظهرها عن سائر الأطفال . فقد شاءت إرادة الرب أن يسبغ عليها الشكل الذى أسبغه علينا جميعاً . ولكن قدر لهذه الطفلة أن يجد فيها الشيطان اللعين أداة طيعة وعونا ! وإنى لأفضى إليكن بهذه الحقيقة ونفسى تفيض ألماً وحزنا ... وإنى لآسف لما ألقى على كاهلى من واجب تنبيهكن إلى ما تنطــوى عليه من شرور مروق ، فهى لا تستحق أن تنخرط فى سلك قطيع الرب ،لأنها غريبة عنه تماماً . فمن واجبكن أن تقاطعنها فلا تخالطنها فى ألعابكن ولا تجاذبنها الحديث أيتها التلميذات الطائعات للرب !.. وقد علمت هذا من السيده المحسنة البارة التى غمرتها بإحسانها وكفلتها بعد وفاة أبويها وعاملتها معاملة الابنة ، فعقتها وقابلت هذا الكرم البالغ بالجحود ، حتى عيل صــبر السيدة الكريمة ، وخشيت على أطفالها من مخالطتها فأقصتها عنهم محافظة على نفوسهم النقية من دنسها !

● أشرقت شمس منتصف الصيف الرائعة على انجلترا فإذا السماوات كاملة الصفاء ، وإذا الضياء يغمر كل شيء بالبهاء والرواء ، حتى كأن باقة من الأيام التى تسود إيطاليا نزحت إلينا من الجنوب كما تنزح أسراب الطيور المهاجرة الرائعة ، ثم خطر لها أن تحط فى طريقها فوق صخور ألبيون . وكان الدريس قد ضم وأدخل إلى الأهراء ، فبدت الحقول كلهـــا حول ثورنفيلد خضراء مكشوفة للعيان ، مجزوزة ،وبدت الطرق بيضاء ساخنة تحت حرارة الشمس ، وبدت الأشجـــار فى الاسيجة وفى الغابات رافلة فى حفل من أوراقها الخضر الحالكة الاخضرار ، فوضحت المفارقة بينها وبين الخضرة الصافية الخفيفة التى تتراقص فى المروج تحت الأشعة البهيجة .

● وشرعت فى الارتداد إلى الدار ، بيد أن مستر روشستر تبعنى ولما بلغنا سدة الباب قال لى :

ـ أتعودين فى مثل هذه الليلة البديعة ؟ إنه لمن العار أن يجلس المرء فى ليلة كهذه داخل الدار وما من أحد على وجه اليقين تنازعه نفسه إلى الإيواء إلى فراشه وغروب الشمس فى الحديقة على موعد للقاء مع طلوع القمر !

ومن نقائصى أن لسانى على ذرابتـــه أحياناً فى الانطلاق بالإجابة يعجز أحيـــاناً أخرى عن إبداء ما أرجوه من المعاذير فيخذلنى فى تلك المواقف ..

وأردف يقول ونحن ندرج معاً إلى الممشى الذى تظلله من الجانبين أشجار الغار :

ـ أى چين ! ألا ترين ثورنفيلد مكاناً رائقاً فى الصيف ؟

ـ بلى ياسيدى .

ـ ولا بد أنك ألفت البيت إلى حد ما وأحسست شيئاً من الارتباط به فلك عين حساسة للجمال الطبيعى

— إنى لأشعر بالارتباط به حقاً .

— وإخالك تكنين فى نفسك — على نحو لا أدرى كنهه — إعزازاً لهذه الطفلة الصغيرة البلهاء أديل بل وللسيدة الساذجة فيرفاكس ؟

— أجل ياسيدى ، أكن الإعزاز لكليهما على نمطين متباينين .

— ويسوؤك أن تفارقيهما ؟

— نعم .

— وا أسفاه !

قالها ثم تنهد وسكت ، ولم يلبث بعدها أن أردف :

— هذا هو حال الدنيا على الدوام : ما إن يستقر قرار المرء فى مكان يروقه حتى يهيب به صوت أن ينهض وينطلق لأن ساعة الراحة قد انقضت !

فسألته :

— أحتم على إذن يا سيدى أن أنطلق من هنا وأبرح ثورنفيلد ؟

— أعتقد أنه لا بد لك من هذا يا چين ! وإنى لآسف يا چانيت ولكنى أعتقد أنه ليس عن هذا محيص !

وكانت لطمة ، بيد أنى لم أدعها تقهرنى !

— ليكن يا سيدى . سأكون على تمام الأهبة متى صدر الأمر بالمسير .

— لقد آن أوانه : ولا بد أن أصدر هذا الأمر الليلة !

— إذن أنت على وشك الزواج يا سيدى ؟

— ذلك كذلك . بالضبط ! لقد أدركت محجة الصواب . وأصبت المحز بثاقب فراستك المعهودة .

— وهل سيكون ذلك قريباً يا سيدى ؟

— قريباً جداً يا ... أعنى يا آنسة إير . وتذكرين يا چين المرة الأولى التى أفضيت إليك أنا ، أو أفضت الشائعة إليك ، أن فى نيتى وضع عنق عزوبتى الطويلة فى حبل المشنقة المقدسة ، والدخول تحت نير الرباط المقدس ... وأحب أن أذكرك بأنك كنت أول من نبهنى بتلك الصراحة التى أحترمها فيك ، وبعد النظر والحرص والاحتشام إننى إن تزوجت الآنسة إنجرام فسترحلين أنت والصغيرة أديل على الفور .

* * *

— لئن أثبتت هذه الوثيقة أنى كنت متزوجاً فهى لا تثبت أن المرأة المذكور اسمها فيها بوصفها زوجتى لم تزل على قيد الحياة .

فقال المحامى بصوت رن فى أرجاء الكنيســة الصامتة !

— إنها كانت على قيد الحياة منذ ثلاثة أشهر

— ومن أدراك ؟

— إن لدى شاهداً على صحة هذه الواقعة ، وهو شاهد ليس فى وسعك ياسيدى أن تدحض شهادته .

— أبرزه أو فاذهب إلى الجحيم !

— سأبرزه أولاً قبل أن أذهب إلى الجحيم ، فهو موجود هنا ! يامستر ميسون تفضل بالتقدم إلى الأمام !

وما إن سمع مستر روشستر هذا الاسم حتى كز على أسنانه ، وشعر برجفة شديدة تعتريه ، وأحسست وأنا بجواره بسلسلة من التقلصات المنبئة عن الغضب والقنوط تسرى فى كيانه . وظهر الغريب الآخر الذى كان متواريا فى الصفوف الخلفية واقترب من المحراب ومن فوق كتف المحامى طالعنا وجه شاحب أجل إنه ميسون بلحمه ودمه . واستدار مستر روشستر وحملق فيه . وكانت عيناه كما قلت كثيراً من قبل سوداوين ولكن الوهج الذى كان يومض الآن فيهما كان يشع بلون الدم ، واحتقن وجهه الزيتونى البشرة ورفع ذراعه القوية مندفعاً إلى الأمام . وكان حريا أن يضرب ميسون فيلقيه على أرض الكنيسة وينتزع أنفاسه من جسده لولا أن ميسون تراجع وصاح :

— يا إله الرحمة .

• وعند مدخل القصر تقدمت مسز فيرفاكس وأديل وصوفى للقائنا وإزجاء التهانى إلينا ، فصاح السيد صارخاً :

– أغربوا جميعاً ! إذهبوا عنى بتهانئكم ! من ذا يريدها ؟ لست أنا ! فقد جاءت متأخرة خمسة عشر عاما !

واجتازهم ثم شرع يصعد الدرج وهو لم يزل قابضا على يدى ، ولم يزل يهيب بالسادة أن يقتفوا أثرنا ، ففعلوا . وظل يصعد إلى أن بلغ الطبقة الثالثة حيث الباب المنخفض الأسود ففتحه بمفتاحه العام وأدخلنا إلى حجرة مفروشة بالبسط فيها فراش ضخم ثم قال :

– هل تعرف هذا الوضع ياميسون؟ لقد عضتك وطعنتك ها هنا .

ورفع الستائر عن الجدار فكشف عن باب آخر فتحه أيضاً . وفى حجرة بلا نوافذ رأينا ناراً تتأجج فى مدفأة حولها سياج قوى من القضبان الحديدية العالية ، وتتدلى من سقفها بسلسلة حديدية ثرياها مصباح . وكانت جريس پول عاكفة على النار تنضج فيما يظهر شيئاً فى مقلاة . وفى جوف العتمة عند الركن الأقصى من الحجرة رأينا شكلا آدمياً يجرى غاديا رائحا ، أقول آدميا ولم يكن واضحاً حتى تلك اللحظة أهو وحش أم إنسان فقد خيل إلينا عند النظرة الأولى أنه يدرج على أربع ، ويزمجر ويهدر كالضوارى ، إلا أنه مكتس بالثياب كالبشر وله شعر منتكث أشعث كاللبد أو المعرفة يغطى رأسه ووجهه .

وقال مستر روشستر :

– طاب صباحك يا مسز پول ! كيف حالك ؟ وكيف حال وديعتك اليوم ؟

– فى حال يمكن أن تطاق ياسيدى . شكراً لك فيها شراسة ولكنها لاتتجاوزها إلى الخطورة .

وعندئذ دوت صرخة وحشية كأنما لتكذب هذا التقرير ، ونهضت الضبع المسربلة بالثياب منتصبة على قائمتيها الخلفيتين !